﴿المحاضرة - 03 - الثالثة﴾

نشأة اللغة العربية

عناصر الدرس
1- مفهوم اللغة
2- نشأة اللغة
3- أصل العرب
4- أقسام العرب
5- مدلول كلمة عرب

محاضرات الدكتور مسعود بن عراري

1- مفهوم اللغة:

اللغة هي الوسيلة الوحيدة لنشأة المعرفة الإنسانية وتكوينها وتطورها، والتي ينقل المرء خلالها إلى الآخرين المعاني والأفكار التي تدور في رأسه التي هي أصوات ملفوظة مرتبة يفهم السامع المراد منها ويختل الفهم إذا تغير ذلك الترتيب.

ولقد اختلف العلماء في تعريف اللغة ومفهومها، بسبب ارتباط اللغة بكثير من العلوم. ويعد تعريف اللغة عند ابن جني من أقدمها وأشهرها: (حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم). ويعرفها ابن خلدون بقوله: "اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئة عن القصد لإفادة الكلام فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم".. واللغة ملكة في اللسان وكذا الخط صناعة ملكتها في اليد وقد عرف كارول اللغة على النحو التالي: أية لغة من اللغات هي نظام بنيوي من الأصوات العرفية المنطوقة التي يمكن أن تستخدم في تتابعات الأصوات عند مجموعة من البشر، ويصنف التعامل بين الأفراد.

2- نشأة اللغة:

اختلف الباحثون قديما وحديثا في موضوع نشأة اللغة الإنسانية الأولى، وتعددت الآراء والفرضيات التي تفسر نشأتها ومن أهمها:

أ- نظرية الإلهام والوحي والتوقيف:

وتذهب هذه النظرية إلى أن الله ﷻ أوحى إلى الإنسان الأول وأوقفه على أسماء الأشياء بعد أن علمه النطق، وقد ذهب إلى هذا الراي الجاحظ.. الذي يرى أن لغة العرب توقيفية. قال عبد المالك بن حبيب ((كان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة عربيا، إلى أن بَعُد العهد وطال صار سريانيا، وكان يشاكل اللسان العربي إلا أنه محرف. (ويرى علماء العبرانية وتابعهم كثير من مشاهير علماء النصرانية وغيرهم أن اللغة العبرانية هي اللغة التي فتق الله بها لسان آدم عليه السلام حتى انتهت إلى إبراهيم عليه السلام.

ب- نظرية المحاكاة:

وتذهب إلى أن أصل اللغة محاكاة أصوات الطبيعة كأصوات الحيوانات وأصوات مظاهر الطبيعة والتي تحدثها الأفعال عند وقوعها، ثم تطورت الألفاظ الدالة على المحاكاة، وارتقت بفعل ارتقاء العقلية الإنسانية وتقدم الحضارة. (وذهب إلى هذه النظرية ابن جني قديما وويتني حديثا في القرن١٩ حيث يقول ابن جني ((وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها، إنما هو أصوات المسموعات كدوي البحر وخرير الماء ونعيق الغارب.. ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد))، وقد كان ابن جني معجبا بهذه النظرية حيث أفرد لها باب في كتاب الخصائص سماه) باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني

ج – نظرية الاتفاق والمواضعة والاصطلاح:
تقرر هذه النظرية أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق، وارتجلت ألفاظها ارتجالا، ومال الكثير من العلماء والمفكرين لهذه النظرية منهم الفيلسوف اليوناني ديموقريط وأرسطو والمعتزلة، وقال بها من المحدثين أيضا آدم سميث الانجليزي.

نقد: لا توجد نظرية واحدة يمكن أن تفسر نشأة اللغة الإنسانية والنظريات متكاملة يمكن أن تفسر ذلك. فالله سبحانه وتعالى أهّل الإنسان وأعطاه القدرات الخاصة، فألهمه لكي ينطق وينشئ اللغة، وبهذه القدرة استطاع الإنسان الأول أن يضع كلماته وجمله الأولى، بالإصغاء والملاحظة والتقليد لما يوجد حوله في الكون، ولما تقدم الإنسان وارتقى في التفكير، بدأ يضع كلمات جديدة بالتواطؤ والاصطلاح الذي لا زال مستمرا.

3- أصل العرب:
اتفق علماء الأجناس وعلماء الأنساب على أنهم من - الفصيلة السامية - وكذلك المؤرخون المسلمون أرجعوا أصلهم إلى - سام بن نوح - عليه السلام وهو أحد الأصول الثلاثة التي تتفرع منها الأمم وهي (سام، وحام، ويافث) ، روى ابن عبد البر في كتابه عن أنساب العرب والعجم حديثاً عن سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم" ورواه أيضاً الترمذي وأحمد والحاكم عن سمرة، وذكره الحافظ العراقي في كتابه - القرب في محبة العرب – "

4- أقسام العرب:
وقد اعتاد المؤرخون بوجه عام أن يقسموا العرب القدامى ثلاثة أقسام. ولكنهم يختلفون في تسمية كل قسم، فمنهم من يقول: بائدة أو عاربة ومستعربة وتابعة للعرب، ومنهم من يسميها بائدة وعاربة ومستعربة، ومنهم من يطلق عليها: عاربة وقحطانية وعدنانية، ومنهم من يجعلها: عاربة ومتعربة ومستعربة، والحقيقة أن الخلاف لفظي إذ إن المقصود بكل واحد من الأقسام الثلاثة واحد بين الجميع، فلا خلاف بينهم إلا في التسمية اللفظية فقط.

أ- العرب العاربة:
هذا لفظ مشتق من العرب، ربما يقصد به التأكيد للمبالغة، فالعاربة هنا إما بمعنى الراسخة في العروبة، كما يقال "ليل لائل، وصوم صائم"؛ وإما بمعنى الفاعلة للعروبية أو المبتدعة لها، لكونها أول أجيالها6. وهذا القسم يسمى أيضًا "العرب البائدة" بمعنى الهالكة، لأنهم بادوا ودرست آثارهم، ولم يبق على وجه الأرض أحد من نسلهم. ويذكر المؤرخون أن هذا القسم كان يتكون من شعوب كثيرة منها: عاد وثمود ومدين وطسم والعمالقة وجديس وعبد ضخم واميم وحضورا وحضرموت وجرهم الأولى..

ب- العرب المتعربة:
هم والقسم الثالث العرب المستعربة يكونون العرب الباقية، أي الذين عاشوا، وبقي نسلهم حيًّا. والعرب المتعربة يعرفون بعرب الجنوب أو الجنوبيين، أو عرب اليمن، أو اليمنيين، لأنهم كانوا يسكنون اليمن، وهي في جنوب شبه الجزيرة العربية، كما يعرفون بالعرب القحطانية، أو القحطانيين، نسبة إلى أبيهم قحطان بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام، ويقال إن قحطان هذا أول جد معروف للعرب، ورئيس ملوك اليمن الذي يروى عنه أنه أول من تكلم بالعربية12 من العرب الباقية، فيقال إنه تعلمها من العرب البائدة الذين كان معاصرًا لهم، فالمتواتر أن أوائل قحطان أدركت أواخر عاد وثمود13 كما يقال

محاضرات الدكتور مسعود بن سالم

إن قحطان أول من اتخذ صنعاء اليمن دارًا للملك وكان ملكه حوالي سنة 1845ق. م وإنه أول من قيل له: أبيت اللعن، وعم صباحًا.

وقام بالملك بعده بنوه وأبناؤهم، فملك بعده ابنه يعرب، ثم ابنه يشجب ثم ابنه عبد شمس الملقب بسبأ وإليه تنسب الدولة السبئية..

ج- العرب المستعربة:

وهؤلاء هم عرب الشمال، أو العرب الشماليون، لأنهم كانوا يسكنون شمالي بلاد اليمن، تهامة والحجاز ونجد وما وراء ذلك إلى مشارف الشام والعراق. ويسمون كذلك العرب الإسماعيليين لأنهم ينسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ويقال إن أصل إبراهيم من بلاد ما بين النهرين، هاجر منها إلى فلسطين ومصر. ثم قدم في وقت من الأوقات إلى الحجاز، وترك فيه ابنه إسماعيل من جاريته هاجر المصرية فنشأ إسماعيل وتربى بمكة بين قبيلة جرهم الثانية وتزوج منهم، وكان له أولاد كثيرون ويذكر النسابون أنهم كانوا اثني عشر ولدًا ذكرًا، وكان من ذريته عدنان، ولذلك يسمى هذا القسم كذلك العرب العدنانية، "وقد نشأ أولاد إسماعيل بين العرب فاستعربوا، ولذلك سموا بالمستعربة

وقد ورثنا من تاريخ هذه الحقب البعيدة آثارًا مهمة جدًّا، وهي: البيت وبئر زمزم، ومقام إسماعيل، والمناسك التي قبلها الدين الإسلامي الحنيف. وقد تناسل من عدنان شعوب كثيرة انتشروا في الحجاز وتهامة والعراق والجزيرة، ومن أولاد عدنان وقحطان كان العرب الشماليون والجنوبيون، الذين تفرعوا فروعًا كثيرة في شبه الجزيرة العربية.

5- ومدلول كلمة عرب:

كيف؟ ومتى نشأت هذه التسمية؟ وما هو أصلها؟ وهل حافظت على مدلولها الأصلي؟ أم خضعت لبعض التطورات خلال العصور المتعاقبة؟.

لقد استقصى المستشرقون تاريخ الكلمة وتتبعوا معناها في اللغات السامية، وتلمسوا شتى المراحل التي مَرَّ فيها مدلولها، فوجدوا أن أقدم نص وردت فيه كلمة "عرب" هو نص آشوري يعود إلى الملك الآشوري "سلمنصر الثالث" الذي خاض في عام 853 ق. م. غمار معركة دامية في "قرقر" شمال حماة، ضد ملك دمشق الآرامي "بنحدد" الذي هاجمه مع حلفاء عديدين بينهم "جندب" أو "جنديبو" أحد مشايخ العرب، فهزمهم "سلمنصر" وخلد عمله على نصب تذكاري جاء في النص المنقوش عليه: "قرقر عاصمته الملكية أنا خربتها، أنا دمرتها، أنا أحرقتها بالنار، ... عشرون ألف جندي لحدد عازر "بنحدد" صاحب آرام "دمشق"، ألف جمل لجندب "العربي1 Al - Urbi ... إلخ" ويعدد النص أسماء 12 ملكًا تألبوا عليه وبرزوا له في المعركة2. لكن الذي قرره الباحثون أن كلمة "عُرْبي" التي وردت في هذا النص لم تكن تعني عند الآشوريين ما تعنيه اليوم عندنا، لا بل إن المقصود منها مشيخة في البادية المتاخمة للآشوريين يحكمها شيخ عربي يسمى "جنديبو"، لا تعريف شامل للعرب1.

وقبل المضي في البحث لا بد من الإشارة إلى بعض الاجتهادات التي تعتمد على تفاسير يمت بعضها إلى البحوث اللغوية "الفيلولوجية" بصلة, ومنها قول للدكتور عمر فروخ أن من الأمم ما كانت تسمى بما يطلق عليها جيرانها من أسماء، وأن سكان بلاد الرافدين "الآشوريون والبابليون" قد أطلقوا على أقاربهم الساميين وجيرانهم القاطنين في جهة الغرب والجنوب الغربي منهم اسم "أريبي". وبعد تفسيرات لغوية معقدة، ينتهي الدكتور فروخ إلى كون الكلمة تتناول معانيَ تتصل بجهة "الغرب" "مقابل الشرق"، وأن كلمة غرب قد انتقلت من بلاد الرافدين وخضعت في طريق هجرتها إلى تغير في حرف "غ" فانقلب إلى "ع" -كما كان من شأن العرب أحيانا في قلب بعض الحروف في الكلمات- فتطورت إلى ألفاظ مثل عُرْبي، أرْبي2.

وغني عن القول أن مثل هذه الاجتهادات يصعب الأخذ بها لعدم كفاية الأدلة التاريخية التي استندت إليها. ولا بد لي من العودة إذن إلى تتبع البحوث التي تدور حول النصوص التاريخية التي خلفتها لنا مختلف الشعوب ذات الصلة بالعرب. فقد ورد في كتابة بابلية قديمة وصلت إلينا جملة "ماتو آرابي Matu - A - Ra - Bi" بمعنى: أرض العرب. وكذلك ورد ذكر للعرب وبلادهم بما لا يتعدى هذا اللفظ في كتابات أتتنا من ملوك فارس مثل "أربايه Arpaya أو Arabaya" وتعني: بلاد العرب. وقد دلت الدراسات التي دارت حول هذه النصوص، ولا سيما البابلية منها، على أن المقصود من الكلمات الواردة فيها -بما يتعلق بالعرب- أراضٍ تشمل البوادي الفاصلة بين العراق وبلاد الشام وبين مصر، بما في ذلك شبه جزيرة سيناء. فهل لكلمة "عرب" صلة بمفهوم البادية؟

إن مثل هذه الفرضية أقرب إلى الفهم, ندرك ذلك إذا تتبعنا مدلول الكلمة في شتى النصوص التي خلفها العبرانيون. ولفظة Arab في العبرانية تعني: البداوة، البدو، الأعراب، البادية، سكان البادية. وقد استعملوها في نصوصهم الأولى التي تعود إلى القرن الثامن قبل ميلاد المسيح وما قبله للدلالة على هذه المعاني، لا بكونها دليلًا على قومية أصحابها الذين ذكرتهم. ففي سفر أشعيا نقرأ: "ولا يخيم هناك أعرابي" وكذلك "وحي من جهات بلاد العرب, في الوعر، في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الداديانيين". فالمقصود من الآية الأخيرة "العزلة والوحشة والبداوة". والعبرانيون قد أطلقوا في الواقع لفظة "عرابة" -وهي تعني في الأصل الجفاف وحافة الصحراء، وكلها ذات علاقة بالبداوة- مسبوقة بأل التعريف "ها" "Ha - Arabah" للدلالة على سكان من وادي "العربة" الممتد بين البحر الميت وخليج العقبة، وكانت تقيم فيه قبائل بدوية شملتها تسمية "عرب"1.

كما أننا نلاحظ في النصوص القديمة عند العبرانيين أن مدلول كلمة "عرب" قد تطور عندهم مع الزمن فأصبحوا -حوالي القرن الثالث قبل الميلاد- يطلقونها على سكان شبه الجزيرة العربية كافةً، بدوهم وحضرهم على السواء.

والتطور الذي حدث بالنسبة لموقف العبرانيين نلمسه نفسه عند العرب القدماء، عرب ما قبل الإسلام، إذ لم يكونوا يطلقون هذه التسمية على أنفسهم للدلالة على قوميتهم -كمفهوم مجرد نحن اليوم نتبناه ونعتنقه- وليس لنا أن نتوخى ذلك عند أجدادنا الأوائل؛ لأنهم كانوا غارقين في منازعاتهم القبلية، ولم يفطنوا إلى الجامعة القومية التي تستطيع جمعهم في أمة واحدة، لأن مقومات هذه القومية لم تكن قد استتمت جميع عناصرها. فإذا وحدتهم اللغة ووحدتهم الأرض المشتركة، فإنهم قد افتقروا إلى الحوافز الفكرية والمصالح المشتركة، لا سيما وأن مصالح مختلف القبائل كانت تدعو -في أغلب الأحيان- إلى النزاع لا إلى التجمع، والمفهوم القومي في الواقع مدرك حديث يغذيه الوعي الاجتماعي والسمو الفكري. وإذا تتبعنا النقوش الكتابية في الجنوب العربي نشاهد أنهم لم يستعملوا التسمية، في بادئ أمرهم، للدلالة على البدو والحضر منهم، أي: للدلالة على قوميتهم، بل استعملوها بمعنى أعراب كقولهم: "أعرب ملك حضرموت، أعرب ملك سبأ"، أي: أعراب ملك حضرموت، أعراب ملك سبأ. أما أهل الحضر منهم فكانوا يعرفون بنسبتهم إلى مدنهم أو قبائلهم التي كانت في الغالب مستقرة تعيش على التجارة والزراعة، كقولنا اليوم "سوريون، عراقيون". وفي القرآن الكريم من الآيات ما يؤيد ذلك: {الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقا} ، {وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} 1.

أما إذا تتبعنا النصوص العربية الشمالية فإننا نجد أن أقدمها نص "نقش النمارة" الذي ينسب إلى امرئ القيس بن عمرو، وهو يعود إلى القرن الرابع الميلادي، ويحمل العبارة التالية: "امرؤ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي حاز التاج، وملك الأسدين ونزارًا وملوكهم وهزم مذحجًا ... إلخ". وبالرغم مما لهذا النص من أهمية عظيمة لذكره العرب تعميما وشمولا، فإن بعض الباحثين يشكون في أن التسمية فيه قد استعملت للدلالة على العرب عمومًا، بل يعتقدون أنه قد قصد بها الأعراب.

خلاصة القول: لا يُستطاع الجزم في تعيين الزمن الذي استعمل فيه العرب أنفسهم -بدوهم وحضرهم- هذه الكلمة علمًا لهم يدل على قوميتهم المتميزة عن قومية غيرهم؛ لعدم وجود ما يثبت ذلك